

القيروان عند الجغرافيين المسلمين قراءة وتحليل

د. محمد صبرى محسوب

جامعة القاهرة

مقدمة :

رغم ظهور الإسلام فى منطقة صحراوية فقيرة فى معطياتها الطبيعية والبشرية، إلا أن العصر الإسلامى كان فترة ازدهار وتطور للمدن التى كانت موجودة قبل ظهوره وانتشاره ووصله إلى هذه المدن مع الفتوحات الإسلامية. كذلك ظهرت مدن عديدة جديدة تماما أنشأها المسلمون فى مواضع مدروسة جيداً وليست بشكل عشوائى ومنها بغداد والتى ازدهرت فى القرن التاسع الميلادى وكانت أكبر مدن العالم سكانا فى ذلك الوقت وهى كما نعرف تخيرت ضفة نهر دجلة وسهوله الفيضية الخصبة، كذلك أنشأوا الكوفة والبصرة وشيراز والأخيرة فى بلاد الفرس (إيران حالياً)، وكذلك دمشق وحلب فى الشام والقاهرة فى موضع القسطنطين على الجانب الشرقى لنهر النيل جنوبى الدلتا.

ومدينتنا التى هى مجال هذه المحاضرة "القيروان" مدينة إسلامية عربية انشئت فى موضعها الحالى على يد القائد العربى الكبير عقبة بن نافع فى العام 50 هجرة (670 ميلادية وذلك لجعلها مركزاً للمسلمين الفاتحين للانطلاق منها لنشر الدعوة الإسلامية، ومن ثم كانت القيروان كأقدم مدينة إسلامية فى منطقة المغرب العربى بداية للحضارة الإسلامية والعربية فى بلاد المغرب العربى كان دورها الأساسى خروج المجاهدين من المسلمين (الجيش الإسلامى) لفتح بلاد جديدة امتدت حتى المحيط الأطلنطى وعبر مضيق جبل طارق فى بلاد

الأندلس وجنوباً باتجاه الساحل الأفريقي عبر الصحراء، حيث انشئت العديد من المدن الإسلامية ومنها تومبكتو في مالي الحالية وتلمسان والمهدية في الجزائر وغيرها كثير.

ولعل ازدهار مدينة القيروان بتصاميم مبانيها الإسلامية الخالدة حتى الآن وغيرها من المدن الإسلامية المزدهرة حالياً يرد على مزاعم بعض المفكرين الغربيين بأن العرب حين نشروا الإسلام لم ينشئوا مدناً وأن المدينة بمعناها الكامل من وجهة النظر الاجتماعية لم تتحقق سوى في الغرب وأنها لم تظهر في العالم العربي إلا في أجزاء محدودة في الشام وليبيا والعراق ومصر ومن ثم فإن هذه الورقة المقدمة بمناسبة الاحتفالية بتتويج القيروان التونسية عاصمة للثقافة الإسلامية لعام 2009 تهدف إلى إبراز دور المسلمين في حسن اختيارهم لموضع هذه المدينة وتحديد وظائفها التي تمثلت أساساً في الوظيفة الحربية والسكنية ثم تطورت مع الزمن لتصبح بهذا المظهر الحضاري المتطور وبتعدد وظائفها التي استمدتها من معطيات موضعها الطبيعية والبشرية فتعددت وظائفها حالياً ومنها أساساً الوظيفة الإدارية والوظيفة السياحية ولعل الآثار الإسلامية الخالدة تعد من عوامل الجذب السياحي لهذه المدينة العريقة، هذا إلى جانب الوظائف التجارية والسكنية والصناعية وغيرها.

وتتناول هذه الورقة النشأة الأولى للقيروان ودورها كمدينة رئيسية استمرت أكثر من أربعة قرون بعد إنشائها خلال العصر الإسلامي والاستشهاد بما ذكره الجغرافيون المسلمون في كتاباتهم واستقراؤها وتحليلها للخروج بملامح واضحة عن هذه المدينة في مراحل نشأتها الأولى في العصر الإسلامي ومقارنتها ببعض المدن الإسلامية الأخرى بهدف إبراز مميزاتها والتي وصلت بها إلى مكانتها الحالية ضمن أكبر وأهم المدن التونسية.

أولاً : نشأة القيروان وتطورها في العصر الإسلامي

نشأت القيروان في عام 50هـ الموافق 670 ميلادية في موضعها الحالي في منطقة وسط تقريباً ما بين البحر (خليج تونس) شرقاً والمرتفعات الجبلية في الغرب في منطقة سهلية أو متموجة لسطح يسهل استخدام أرضها في البناء والاستقرار دون غناء في جعلها مقراً لجنود المسلمين منذ عصر عقبة بن نافع، وهي بذلك تعد أقدم مدينة عربية إسلامية النشأة في بلاد المغرب العربي ومن

أقدم المدن الإسلامية بشكل عام فقد ظلت نحو 400 عام العاصمة الأولى للإسلام في أفريقيا والأندلس، كما كانت مركزاً لتجمع الجيوش الإسلامية تنتشر منها تجاه البلاد المختلفة في فتوحاتهم كما أنها كانت نقطة لصد الغزوات وحماية أرض المسلمين. وكذلك كانت محطة لرحلة القوافل التجارية والمسافرين عبر تاريخها.

وإذا كانت القيروان قد لعبت دورها بقوة في الوظيفتين الحربية والتجارية فإنها إلى جانب ذلك كانت موطناً لنشر العلم والفقه في أرجاء البلاد. ونذكر في ذلك عندما جمع القائد العربي الإسلامي الكبير عقبة بن نافع الوجهاء والعسكر بعد إتمام بناء المدينة وداروا حولها، وقال داعياً الله عز وجل "اللهم املأها علماً وفقها وامعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك وذلك لمن كفر بك واعز بها الإسلام".

والقيروان كلمة فارسية (كاروان) تم تعريبها وتعنى منطقة يعسكر فيها العسكر وبالفعل بنت في الأساس لهذا الغرض.

أ- أسباب إنشاء مدينة القيروان :

كما ذكرنا تم بناء مدينة القيروان عندما بدأت إفريقيا الإسلامية تشهد ازدهاراً وظروفاً جديدة في عصر عقبة بن نافع والذي وجد أن إنشاء مدينة يحيط بها المسلمون وتتطلق منها جيوشهم تمثل أفضل وسيلة للمحافظة على إفريقيا الإسلامية من هجمات البربر والروم من البر والبحر ومن ثم أسس مدينة القيروان وجامعها المعروف باسمه.

وما ذكرنا قوله في جنده قبيل الشروع في بناء مدينته ما يلي :

"إن إفريقيا إذا دخلها امام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذونها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر". وقد استجاب القوم لرؤيته وأخذ المشورة في تحديد أنسب المواضع لبناء المدينة المنشودة وأمر الناس بالبناء فبنيت وبنى المسجد الجامع وقام الناس ببناء مساكنهم ومساجدهم وتم أمرها في العام 55 هجرية واستقر فيها المسلمون. هكذا كانت هناك دوافع وأسباب سياسية وعسكرية ودعوية وراء إقرار عقبة بن نافع في بنائها.

موضع المدينة :

عندما تشاور عقبة بن نافع مع رجاله عن أنسب المواضع طلب البعض أن تبني المدينة قرب البحر لتسهيل عملية الجهاد والرباط ولكنه خشى من الروم بالإغارة عليها وامتلاكها وذكر ما يلي : "إنى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيمتلكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون" (البيان المغرب 19/1). كما لم يرق له موضع القيروان الذى كان بناء معاوية بن خديج من قبل.

واختار موضع القيروان الحالى وبدأ البناء فى هذا الموضع وكان يتميز بأرضه السهلية نسبياً تغطيها الأشجار على مسافة 50 كيلو متر تقريباً من ساحل خليج سوسة (أى مسافة مسيرة يوم فى ذلك الوقت كما أنها تبتعد عن المناطق الجبلية الوعرة بنفس هذه المسافة تقريباً، ويتميز الموضع بما يلي :

- أقيمت المدينة فى موضع يبعد عن الأعداء الروم فى البحر وعن البربر المناوئين للإسلام فى المنطقة الجبلية وذلك بمسافات مناسبة.

- أرض سهلة منبسطة يسهل تحرك الخيول خلالها أثناء خروجهم للغزو أو ضد الأعداء. خاصة وأن كل الغزوات والرحلات السابقة كانت تمر بهذا الموقع⁽¹⁾.

- هذا الموضع كان قريباً من الشطوط (السبخات) والمنافع المائية مما يوفر مصدراً رعوياً للابل والدواب الأخرى⁽²⁾.

- هذا الموقع يوجد على الطريق البرى الذى كان يربط بين القسطنطينية فى مصر وإفريقيا الإسلامية وهنا نجده قد تأثر بالفكر الإسلامى فى ضرورة بناء الأقطار والمعسكرات بحيث لا يفصلها فاصل من نهر أو بحر عن المدينة أو مركز العبادة وأن تكون على أطراف البر والصحراء.

(1) تذكر كثير من المصادر أن معاوية بن خديج قد عسكر خلال إحدى حملاته الثلاث على إفريقية بالموضع المعروف بالقرن على مسافة عشر كيلو مترات شمالى غربى القيروان.

(2) يقول عقبة فى ذلك موضعاً الثقافة العربية والإسلامية فى ذلك الوقت وهو يخاطب قومه فى شأن موضع المدينة "إن أكثر دوابكم الإبل تكون إيلكم على بابها فى مراعيها

- أى مدينة لكى تبقى وتستمر لابد أن يكون لموضعها أى المكان الذى تقام عليه، معطيات بيئية من مياه ونبات وموارد معدنية، وغيرها، وموضع مدينة القيروان، فى ذلك الوقت كان غيضة مليئة بالأشجار والمحاصيل الأخرى التى توفر موارد زراعية ورعوية محلية فى ظهيرها العربى جبال أوراس معقل البربر، وكانت المياه تأتى من مصدرين أولهما المطر وكان القاطنون يخترنونها، فيما كان يعرف بالموجل (وهى خزانات صخرية) ويجرى قربها وادى السراويل وإن كانت مياهه ترتفع بها نسبة الملوحة مما جعل المطر المصدر الرئيسى للمياه والذى يجرى فى الأودية وتنتهى فى الخزانات أو البرك.

وفى هذا يقول المقدسى شربهم من مواجين وصهاريج تجتمع فيها مياه المطر وقد أجرى لهم المعز قناة من الجبل تملأ المواجين بعدما تدخل قصره بصبرة. وفى كتاب معجم ما استعجم للبكرى نرى وصفا لموضع القيروان على النحو التالى : ركب الناس إلى موضع القيروان اليوم وكان واديا كثير الأشجار غيضة، مأوى للوحوش والحيات، فوقف عليه عقبة بن نافع وقال " يا أهل الوادى إنا حالون إن شاء الله فأظعنوا يقول ذلك مرات قال فيما رأينا حجراً ولا شجراً إلا تخرج من تحته حية أو دابة حتى هبطن بطن الوادى ثم قالوا انزلوا باسم الله وأمر بقطع شجره وحرقه واختط فى ذلك الموضع وقام به ثلاث سنين ثم جعل يغزو ويفتح البلاد حتى فتح سوس القصوى وقتل شهيدا سنة ثلاث وستين، وكان مستجاب الدعوة.

السمات العمرانية (شكل المدينة ومبانيها)

قام عقبة بن نافع بوضع خطة لدار الإمارة وخط موضع المسجد الأعظم وبدأ بناء القيروان سنة 51 هجرية 671 ميلادية واستقامت المدينة فى سنة 55 هجرية 675 ميلادية وقد وصفها ابن عذارى فقال " ثم أخذ الناس فى بناء الدور والمساكن والمساجد وعمرت وشد الناس إليها المطايا من كل أفق وعظم قدرها وكان دورها ثلاثة عشر ألف ذراعا وستمئة ذراعا حتى أكمل أمرها⁽¹⁾.

(1) المصدر كتاب معجم ما استعجم للبكرى، تحقيق مستفيد. ف، حوتجن وباريس، 1877، الجزء الثانى، ص 758.

وقد وصفها ابن "حوقل" فقال "وكانت القيروان أعظم مدينة في المغرب وأكثرها تجارا وأموالا وأحسنها منزلا وأسواقا وكان فيها ديوان جميع المغرب وإليها يجبي أموالها وبها دار سلطانها وكان ذلك في سنة ست وثلاثين وثلثمائة(1).

كما وصفها المقدسي بقوله "القيروان مصر الإقليم بهيج عظيم حسن الأخباز جيد اللحوم قد جمع أصداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والتعلم مع علم كثير ورخص عجيب.

ويصف مبانيها على النحو التالي :

بنيانهم مدر وأجر ومواجين الزيت بها كثيرة، الجامع بوضع يسمى السماط الكبير وسط الأسواق في شرق البلد أكبر جامع بأعمدة من رخام، مفروض وداره الرخام ومزاريبه رصاص له باس السماط وباب الصرافين وباب الرهاونة وسوق الرماحين ودور بها خمسة عشر دربا. ويذكر ان عرض سورها اثنا عشر ذراعا منفصلة عن العمارة بينها وبين المعبر عبر الطريق، وتجارها يغدون ويروحون إليها من المعبر على حمير، والأبواب كلها محددة الحيطان أجر مكمل بالجير(2).

ونرى الأدريسى يصفها بقوله :

"ومدينة القيروان أمام أمصار وقاعدة أقطار وكانت أعظم مدن الغرب قطرا وأكثرها بشرا وأيسرها أموالا وأوسطها أحوالا واتقنها بناءً وأنفسها همما واربحها تجارة وأكثرها جباية وأنفقها سلعة وأنماها ربحاً. والقيروان كانت مدينتين أحدهما القيروان والثانية صبرة وكانت صبرة دار الملك وكان فيها أيام عمارتها ثلاثمائة حمام وأكثرها للديار ويقول إن صبرة الآن في وقتنا هذا خراب وليس بها مساكن وعلى ثلاثة أميال منها قصور رقاده الشاهقة الحسنة البناء الكثيرة البساتين والثمار.

(1) عبد المجيد حمده، ثقافة المجتمع القيرواني في القرن الثالث الهجري، العصبه تونس، 1418هـ - 1997م، ص 21.

(2) راجع بالتفصيل "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لشمس الدين ابن عبد الله محمد بن احمد ابن أبي بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري - تحقيق ج.دى غويه بريل، ليدن 1906، ص ص 224-226

ويقول فيها يا قوت فى معجم البلدان "وهذه مدينة عظيمة بافريقية غيرت دهرأ وليس بالغرب مدينة أجل منها.

والحقيقة أن مدينة القيروان حيثما نشأت أخذت الطابع الإسلامى فى تصميم خططها ومبانيها. وجدير بالذكر أن النصوص القديمة لم تقل إن قيروان إفريقية لم تنشأ فى مضاء لا عهد للناس فيه عربية أو بناء وإن كانت فذكرت أن قيروان عقبة أسست على أرض كلها "شعارى وعياض لا تسلك ولا ترام".

ويلاحظ من النصوص القديمة لدى الجغرافيين المسلمين أن المدينة قد استمدت قدسيتها لدى المسلمين لكونها أقيمت فى مناطق ترتادها السباع والحيات وذلك عندما جمع عقبة ثمانية عشر من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ونادى "أيتها الحيات والسباع نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن حلوا عنا إنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه، فنظر الناس فى ذلك اليوم إلى سباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل اجراءها والحيات تحمل أولادها فأسلم كثير من البربر. وظل يدعو الله ويقول اللهم املأها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعائدين واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك واعز بها الإسلام والمسلمين وامنعها من جبابرة الأرض. وكان ذلك مدعاة الاطمئنان السكان فى مسكنهم. ومن ثم فإن القيروان تجسد المعانى الإسلامية العالقة بالتراث خاصة ما بها من مقابر الصالحين.

وتتمثل خطة المدينة العمرانية فى وجود المنطقة المركزية والتي يعد فيها المسجد الجامع مركز المدينة الإسلامية ثم بناء بيوت الولاة ودوابهم مجاورة للمسجد الكبير، والذي لم يكن مكانا للصلاة فحسب ولكنه كان مركزا لإدارة شئون الحملة الإسلامية ودار ندوة المسلمين ومقرّ انطلاق لنشاطهم الدينى والسياسى والعسكرى جميعا.

هكذا نجد أن المسجد الجامع والممثل هنا فى مسجد عقبة بن نافع محور الحياة والحركة فى القيروان مثلما الحال فى المدن الإسلامية الأخرى⁽¹⁾. وإن

(1) أحمد على إسماعيل، المدينة العربية والإسلامية، توازن الموقع والتركيب الداخلى، جامعة الكويت، الكويت، مجلة قسم الجغرافيا، يونيو 1987.

كان قد وضع موقع بالقيروان بطرف المدينة⁽¹⁾ فى تخطيطها الأولى لحماية المدينة من الجانب الشرقى وذلك ليؤمن لجوء المسلمين عند الخطى داخل أسواره ويقدر المحيط الذى قام الناس ببناء مساكنهم فيه ثلاثة عشر ألف ذراع وستمئة بما يساوى سبعة كيلو مترات ونصف واستقر بنو فهر (قوم عقبة) شمال الجامع للقرب من دار الاماره الواقعة إلى الجنوب منه وتم تسمية الأحياء والحارات بأسماء متساكنيها من القبائل العربية مثل حارة يحصب ورحبة القرشيين وغيرها ثم تم تقسيم الأحياء وتحديد مواقع المرافق السكنية من مسالك مؤدية ومفرعة وأسواق لممارسة الأنشطة التجارية والحرفية من مواد غذائية وأعلاف للحيوانات ومنتجات حرفية وغيرها.

وكان نوع البناء فى البداية من لبن ومن المواد الموجودة محليا بكثرة ومن صخور اقلعت من المحاجر بالجلال القريبة عند مدينة جلولاء عند موضع الرويساء الوقت الحاضر. ولكن المؤسسات الكبيرة قد استخدمت الحجارة الكبيرة وأعمدة الرخام.

أما سور المدينة وهذا ما تتميز به المدن الإسلامية فكانت المدينة فى مراحل نشأتها الأولى فى غير حاجة لسور حولها والسبب فى ذلك أرضها المنبسطة. ولكن مع مرور الزمن أصبحت فى حاجة لسور يحميها ويحيط بها. وكان أول سور قد بناه محمد بن الأشعث العباسى وتم بناؤه فى عام 146هـ فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور والذى ربما أمر ببنائه.

وكانت له أبواب اصطلح الناس على أسمائها تحديدا لجهاتها وكان عرض السور خمسة أمتار وقد تعرض للتدمير فى الفترة من 151-154. ثم تم إصلاحه عام 209 ثم هدم بعد ذلك واختفى تماما.

أما موضع السوق فقد ذكر أبو عبيد البكرى ما يلى : وكان السماط سوق القيروان متصلا من القبلة إلى الجوف (بين الجامع وباب أبى ربيع بطول ميلين

(1) لم يبق مما بناه عقبة سوى المحراب بالجامع وما يوجد الآن يرجع إلى القرنين الثانى والثالث الهجرى. ويعود بنا الجامع الحالى لحسان بن النعمان فى موضع جامع عقبة ثم تطور بعد ذلك إلى أن أخذ شكله الحالى والذى تتجلى فيه الهندسة المعمارية الإسلامية مثل صحن الجامع بشكله شبه المربع والمبلط برخام والمواجل وأعمدة من الرخام، والرواقات والمنذنة وباب البهو وغيرها من معالم الجامع.

إلا الثلث وكان سطحاً متصلاً فيه جميع المتاجر والصناعات وكان يشمل متاجر الألبسة والاقمشة والفواكه والعطور والزعفران والعنبر وغيرها من المنتجات المختلفة.

وكان يوجد بالمدينة أماكن ومنازل مقامة لاستقبال الغرباء وإقامتهم بغرف بالفنادق وبجانبها المطاعم. وكان لكل حي أو ربض بالمدينة مرافقهم العامة الضرورية من حمامات وغيرها وكانت محيطة عادة بالمسجد والكتاب المجاور له. والبيوت كانت بسيطة في مظهرها مقتدية بالتعاليم الإسلامية مع ترتيبها للتعرف عليها. وعادة ما تواجه البيوت القبلة وكذلك غرف النوم والجلوس ومن ثم لتستقبل الشمس من جهة الشرق.

وتوجد المقابر خارج سور المدينة وعادة ما كانت تسرف على ربوة مرتفعة مثل مقبرة البلوية ومقبرة الحاج الأخضر وأولاد فرحان ولم تكن من دار تخلو في الغالب من ماجل أو أكثر لتجميع المطر⁽¹⁾.

سمات السكان في العصر الإسلامي :

كان سكان مدينة القيرون خليطاً من قادمين من أصول عربية وبربرية ورومية ويونانية وإفريقية وفارسية. ومع ذلك فإن سمة التسامح هي التي كانت سائدة. كانت الحرية أساساً لممارسة الأفراد بها والجماعات لحياتهم وكانت روح التأخي في الإسلام والتسامح مع الأديان هي الصفات الطاغية على سلوك سكان القيروان الإسلامية.

وكانت أبواب مدينة القيروان مفتوحة على البادية ومن ثم يمكن القول إنها تعد بحق حاضرة البوادي وبادية الحواضر. وذلك بفضل موقعها المتأخم لبو الجبال والصحراء مكتسبين أفضل صفات الجانبين خاصة وأن القادمين من البر يأتون منجذبين للأماكن ذات القدسية الخاصة بهذه المدينة المباركة والمقدسة والمتمثلة في أضرحة الصالحين من أهل العلم والفقه.

(1) يذكر أن جميع البرك التي كان يختزن فيها الماء في القيروان كانت تقع خارج سور المدينة العتيقة والذي كان يحيط بها تشكله الرباعي المنكسر الأضلاع نحو كيلو متر طولاً ونصف الكيلو متر عرضاً ونحو سور عظيم الحجم ومرتفع يكثر به الشرفات المعقودة من الطوب الأحمر. ولم يبق من البرك غير بركة الاغالبية (السعقية) وهي على مسافة 1 كم منه.

وجدير بالذكر أن دور المرأة القيروانية غير واضح عند المؤرخين وربما يرجع ذلك إلى مراعاتهم لحرمة المرأة في الإسلام ولكن يبدو تأثيرها في وضوح تماسك الأسرة القيروانية والأزدهار العلمى الذي شهدته.

وفى تنوع سكان القيروان تبعا لقبائلهم العربية وغير العربية نجد اليعقوبى فى كتابه البلدان يذكر ما يلى :

"وفى مدينة القيروان أخلط من الناس من قریش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان، وبها أصناف من العجم من أهل خراسان ومن كان وردها مع عمال بنى هاشم من الجند وبها عجم من عجم البلد البربر والروم وأشباه ذلك.

ويدل على زيادة عدد سكان القيروان وازدهارها ما ذكره المقدسى فى وصفه فى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم أنها مفخرة المغرب ومركز السلطان وأحد الأركان، اكبر من نيسابور. وكذلك ما ذكره ابن حوقل أكثرها تجارا وأموالا وأحسنها منازل وأسواقا.

وجدير بالذكر أن الأسر العربية قد استقرت بالقيروان منذ قدومها مع عقبة بن نافع فى جيشه، وكان بعض الجنود عندما ينتهون من المعارك يستقرون بها، هكذا ظهرت القيروان طبقة من السكان العرب تولى منهم المناصب القيادية والحوية بالمدينة مثل الولاة وقيادة الجيش والقضاة. إلى جانب الاقطاعيين الكبار (1).

وقد ازدهرت التجارة وكانت فى أيدى تجار كبار ولكنها لم تقتصر على المسلمين وحدهم بل اشترك معهم اليهود الذين كان لهم سوق باسمهم. مما يدل على أن التعامل كان على أحسن وجه بين المسلمين واليهود والنصارى المقيمين بينهم. وقد ادى هذا الازدهار التجارى إلى تنشيط الحياة الاقتصادية وجذب عدد كبير من السكان من البلاد المجاورة للمساهمة فى مشاريع التنمية بالقيروان. مثل التاجر الأندلسى ابن خيرون الذي بنى جامع الأبواب الثلاثة وهو جامع كبير يعد من أهم معالم القيروان.

(1) الحبيب الجناحى، القيروان - عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى، تونس 1968، ص 172.

وازدادت الأسواق اتساعا وكانت تنسب لمؤسسيها أو إلى مشاهير العلماء أو الساكنين حولها⁽¹⁾ منها سوق اليهود وسوق بنى هشام.

وكان وراء ازدهار القيروان واستمراره لفترات طويلة ظهور عدد من القضاة العادلة الذين خلصوا المجتمع من كل أنواع الظلم وأشاعوا الأمن.

وهناك البناؤون الذين كثر عددهم في القرن الثالث الهجرى أيام الأغالبة وذلك لما كانت تشهده القيروان من نهضة عمرانية، وازدهرت التجارة في ذلك الوقت واتسعت مجالاتها ومع البلاد المجاورة وارتبطت بتعبيد الطرق التي ربطت القيروان بغيرها من المدن.

كما كان اهتمام بالصناعات مثل عصر الزيتون والمنسوجات والصناعات الحرفية التي تشتهر بها القيروان.

ومن الطبقات السائدة طبقة الجند وكان عددهم كبيرا في عهد الأغالبة وكانوا خليطا من العرب وسكان البلاد وعجم المشرق.

ولكن أكثر الفئات انتشارا الفلاحين المختصين بزراعة الأرض وتربية الماشية والخيول ودخلت البلاد محاصيل جديدة مثل القطن وقصب السكر والعنب.

هكذا انقسمت طبقات المجتمع القيروانى في عصر الأغالبة (القرن الثالث الهجرى) على النحو التالى :

- طبقة العرب وهم أهل السلطة والنفوذ.
- طبقة الموالى من البربر والأفارقة.
- طبقة الجند وكانوا خليطا من العرب والعجم.
- طبقة العبيد التى تضخمت بسبب الفتوحات المتوالية.
- طبقة الذميين وقد أخذت حريتها فى العبادة والحياة مع بقية الطبقات⁽²⁾.

(1) عبد المجيد بن حمده، ثقافة المجتمع القيروانى فى القرن الثالث الهجرى، القصبه - تونس، 1997، ص 71.

(2) راجع بالتفصيل المرجع السابق.

إنّ القيروان الحالية تعد من المدن التونسية المعروفة وسط تونس وتمثل مركز ولاية القيروان مساحتها التي تبلغ 6.700 كيلو متر مربع و546 الفرنسية 80% منهم لعضوية مدينة القيروان التي تقع على بعد 160 كيلو متر من العاصمة تونس. وقد تبوّأت القيروان مكانتها كمركز حضارى بالغ الأهمية فى الشمال الأفريقى خلال العصور الإسلامية وكان وراء ذلك عدة عوامل يتمثل أهمها فيما يلى :

(1) موقعها بالغ الأهمية :

كما عرفنا فإنه عندما قام عقبة بن نافع بالتفكير فى إنشاء مدينة القيروان فى عام 50 هـ اختار موضعها الحالى فيما بين خليج تونس الحالى فى الشرق والمرتفعات الجبلية فى الغرب وسط منطقة سهوب سهلية نادرا ما يظهر بها التضرس الواضح وذلك لى تقوم بوظائفها بسهولة ويسر سواء كانت الوظيفة السكنية أو الوظيفة الحربية وغيرهما الكثير. وهو بهذا لم يخرج عن الفكر الإسلامى السائد فى فترات إنشاء المدن وازدهارها والخاص باختيار المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية التى يمكن من خلالها أن نتحكم فى الطرق البرية التى يرتادها التجار أو يتحرك عبرها الجنود. مثلما هو الحال فى العديد من المدن الإسلامية الأخرى، مثل بغداد والفسطاط والقطاع ودمشق وفاس فى المغرب وغيرها.

وبالفعل فإن موقع القيروان كان متميزا كما رأينا وكانت تمر بها الطرق الرئيسية باتجاه دول الشمال الأفريقى قادمة من الشرق وكانت تنطلق منها الجيوش والدعاة لنشر الدعوة الإسلامية، وهكذا كانت القيروان كأقدم مدينة إسلامية فى منطقة المغرب العربى نقطة البداية الحقيقية لانتشار الحضارة الإسلامية والعربية فى بلاد المغرب العربى واستمرارها فى بلاد الأندلس التى استمر بها المسلمون زهاء ثمانية قرون، كذلك باتجاه الساحل الإفريقى عبر الصحراء الكبرى وأنشأ فيها المدن الإسلامية بالصحراء مثل تومبكتو فى مالى حاليا وكذلك تلمسان والمهدية فى الجزائر وفاس بالمغرب.

(2) الدور العسكرى المنوط بالمدينة فى العصر الإسلامى

كانت القيروان معقلا لجنود المسلمين منذ نشأتها فى عهد عقبة بن نافع 500 هجرية 670 ميلادية واستمرت تقوم بهذا الدور خلال فترات زمنية طويلة

ولعل الأصل الفارسي لكلمة قيروان وتعنى مكان الجند أو مكان استقرارهم أو موضع استراحة للقوافل يؤكد على ذلك.

كما يؤكد ذلك أن كل الحملات التى سبقت إنشاء القيروان كانت تمر بالطرق التى تخترق هذا الموضع. كما تتفق المصادر على أن معاوية بن حديج قد استقر بعساكره خلال إحدى حملاته على إفريقيا بالموضع المعروف بالقرن إلى الشمال الغربى من القيروان بعشرة كيلومترات. وكان يدفن بها الرموز الدينية التى تشتهر أثناء المعارك العسكرية مثل الصحابى أبى زمعة البلوى والذى استشهد خلال الغزوة الأولى لمعاوية بن حديج عام 34 هجرية - وهكذا كان لهذا العامل دوره الكبير فى استمرار ازدهار المدينة وإن كان بدرجات مختلفة خلال تاريخها.

(3) الدور العلمى الذى كانت تقوم به القيروان :

قامت القيروان منذ نشأتها بدور كبير فى نشر العلوم والثقافة فى الشمال الإفريقى وكانت فى ذلك قد سبقت كلاً من فاس المغربية وقرطبة الأندلسية.

وأقيمت بها المراكز الدينية والعلمية التى ما زالت تشهد بتاريخها العلمى العريق مثل مسجد عقبة بن نافع وعدد من المساجد التى كانت تمثل مراكز تقام بها الحلقات الدراسية الدينية فى المقام الأول كما أنشئت دور الحكمة وكانت تقوم بدور المدارس والجامعات التى تستقطب علماء المسلمين القادمين من المشرق للتدريس وتعليم أصول الدين ومختلف مجالات العلوم والعلم والثقافة. وهكذا أصبحت القيروان مركز إشعاع علمى وثقافى فى المغرب الإسلامى - وكان يفخر بها المسلمون، ومنها تنطلق بعثات الدعاة لنشر المذهب المالكي فى عموم المغرب ونشر أمور الدين لسكان أفريقيا بل انتشرت تعاليم الإسلام تجاه أوروبا عبر الأندلس وجزيرة صقلية. وكانت الكتب الفقهية لسحنون وغيره المراجع الرئيسية لأهل المغرب حتى القرن السابع الهجرى.

كذلك أنشئت المكتبات العامة والمدارس والزوايا، وعادة ما تظل مفتوحة أمام الدارسين الذين يذهبون إليها لينهلوا من أمهات الكتب التى تضمها هذه المكتبات. ومن أشهرها بيت الحكمة الذى أنشئ فى حكم إبراهيم الثانى الأغلبى 261-289هـ التى أتى إليها العلماء فى مجالات الطب والبنات والهندسة والرياضيات من كل فج عميق فى أنحاء الدولة العباسية وكانت مرتبطة ببغداد مركز الخلافة العباسية.

وجدير بالذكر أن مسجد عقبة بن نافع أقدم من الجامع الأزهر بنحو 300 سنة وأقدم من الزيتونة بنحو 30 سنة.

(4) الدور السياسى للمدينة فى أوائل القرون الإسلامية

لعبت القيروان دوراً رئيسياً فى الحياة السياسية فى أوائل العصور الإسلامية فكانت تمثل العاصمة السياسية للمغرب الإسلامى ومركز النقل فى هذا المجال حتى أواخر عهد الأمويين فى دمشق.

وفى العصر العباسى قامت بها دولة الأغالبة 184-296هـ وضمت إليها صقلية إذ ازدهرت منشآت القيروان العمرانية والدينية وتعرضت لمراحل من الازدهار والركود تبعاً للأحداث التى مرت عليها.

ففى عصر المعز لدين الله الفاطمى سنة 362/973 هجرية اهتم بالقيروان واتخذها مركزاً لنائبه فى إفريقية واستقرّ فى القاهرة بمصر، هكذا توالى عليها الأحداث والظروف وفى جميع الحالات لعبت أدوارها فى تلك الأحداث سواء كانت منبثقة من الداخل القادمة من خارج حدودها.

المراجع

- 1- المقدسى (شمس الدين محمد أحمد)، 1906، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، دى خويه، ليدن.
- 2- عبد المجيد بن حمده، 1997، ثقافة المجتمع القيروانى فى القرن الثالث الهجرى، تونس.
- 3- الجنحانى الحبيب، 1968، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى، تونس.
- 4- عبد الرحمن بن عبد الحكم، 1964، فتوح أفريقية والأندلس، تحقيق عبدالله أنيس، بيروت.
- 5- محمد المعتصم، 1980، المدينة الإسلامية وخصائصها، مستخرج من حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر، العدد الثانى، 1400هـ.
- 6- وليد عبدالله المنيسى، التفسير الشرعى للمدن، النشرة الجغرافية لقسم الجغرافيا والجمعية الجغرافية الكويتية، العدد 62، فبراير 1984.
- 7- حسين مؤنس، 1973، عالم الإسلام، دار المعارف، القاهرة.
- 8- أحمد على إسماعيل، 1982، دراسات فى جغرافية المدن، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- 9- أحمد علي إسماعيل، المدينة العربية والإسلامية، توازن الموقع والتركيب الداخلى. نشرة دورية محكمة، قسم الجغرافيا، جامعة الكويت، 1407، يونيو 1987.